أبو خليل القباني
باعث نهضتنا الفنية
وأثر رحلته إلى الديار المصرية
للأستاذ حسني كنعان

- ٥ -

كان هبوط القباني مصر في عهد ساكني الجنان المغفور لهم: (الخديو إسماعيل والخديو (توفيق) والخديو (عباس)) وكان هؤلاء يعطفون عليه بعطف بعض ولاة الشام ويشجعونه حتى بلغ من شدة عطف الخديو توفيق عليه أنه طيب الله ثراه ونضر ضريحه كان له في مسرحه حجرة خاصة يؤمها كلما لفتت نفسه وتاقت لمشاهدة فن هذا النابغ السوري العظيم.

ومما حببه إليه أن مدة إقامته الطويلة في مصر صادفت هذا العهد التوفيقي الذي كتب له فيه النجاح والفلاح.

ولقد اشتهر نابغتنا في هذا العهد وفي هذه البلاد التي تعرف قيمة الفن وأربابه نال شهرة فائقة لا تقاس بها شهرته في وطنه حتى غدا مسرحه في برهة وجيزة كعبة للقصاد وقبلة أنظار عشاقه. وكانت شهرته في سورية مقتصرة على هذا المحيط الضيق، أما هنا فلقد طارت شهرته في كافة أقطار العالم وأصبح بهذا مفناً عالمياً عرف له أهل الخبرة من الفنيين المتمكنين من هذه الصناعة والمتذوقين قدره ولزموا مجالسه — وأقبلوا على مسرحه إقبالاً رائعاً إن دل على شيء فإنما يدل على مقدار عظمة مصر وتقديرها للنابغين، فأخذ عنه الكثيرون منهم وتتلمذوا عليه — وناصروه وآزروه فانتعشت بذلك آماله وتجددت همته فأرى أبناء الوادي من عظيم فنه وخوارق مواهبه ما صيره موضع الإكرام والإجلال بينهم، فنسي بهذا أيامه السود التي مرت عليه في الشام مجفواً من السلطان ومنبوذاً من الأهل والخلان). وكان (عبده الحمولي) المغني المعروف والمطربة المبدعة (ألماظ) لا يتورعان عن حضور حفلاته ولا يبخلان على الجماهير بعرض بعض أدوارهما وقطعاتهما الموسيقية والغنائية في فترات فصول رواياته، ولهذا كان مسرحه يحوي العبرة والعظة في التمثيل والفن والطرب والإبداع في التغني والإنشاد ...) وهنا أراني ملزماً بإثبات بعض ما ورد عنه في كتاب الموسيقى الشرقي لأحد تلاميذه المرحوم (كامل الخلعي) من وصف عام شامل يدرك القارئ منه مقدار المكانة الفنية الرائعة التي كان يتمتع نابغتنا بها في مصر ومقدار تقدير المعاصرين له. قال بالحرف الواحد ما نصه.

فكان مسرحه مورداً عذباً يؤمه الكبراء والأمراء والشعراء والأدباء لمشاهدة رواياته وجلها من منشآته لما جمعت بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها — أرهفت نواحيها بالتهذيب، وطرزت حواشيها بكل غريب — تشهد لحسنها الكثير من أهل البلاغة ومتقني صناعة الصياغة كما شهد من قبل أكابر الموسيقيين وفطاحل الملحنين — وكان بعد انتهاء كل رواية يلقي من القطع الموسيقية شذوراً تنزو لها الأكباد، ويتحرك لحسن وقعها الفؤاد، حتى أحرزت مصرنا من إقامته فيها فنوناً جزيلة وفضائل جليلة يقدرها حق قدرها أولو السجايا الحميدة والعقول الحصيفة — ولا ينكرها إلا ذوو الأغراض السائلة السخيفة اهـ).

هذا وقد أفرد له تلميذه بحثاً خاصاً ذاكراً فيه مزاياه الفنية والأدبية والأخلاقية والعلمية يراه القارئ في تراجم عظماء الموهوبين من رجالات الفن على الصفحة (١٣٧) من هذا الكتاب التي أشرت إليه آنفاً ونقلت منه هذه الفقرة من الترجمة مدللاً بها على صحة ما أوردته من تقدير هذا النابغ في مصر العزيزة وهي غيض من فيض ما كتب عنه في هذا الفصل يراه الباحث المنقب الذي يريد أن يعرف عظمة القباني يومئذ في ربوع النيل السعيد، وقد عرف عن الشيخ سلامة حجازي أنه كان يحضر رواياته وهو فتى حدث لم يبلغ الحلم بعد فلفت نظر القباني هذا الفتى المداوم على مشاهدة رواياته كل ليلة فسأل عنه فقيل إنه منشد حدث ينشد في الأذكار والموالد يدعى سلامة حجازي فدعاه لإسماعه فأسمعه إياه فسر به كل السرور وتنبأ له بمستقبل باهر وصيت بعيد. ولقد صدقت نبوءة القباني فيما بعد وأرتنا الأيام أن الشيخ سلامة أمسى نابغة عصره في فنه وأن الزمان قل أن يجود بمثله في مصر من الأصوات الكاملة التي تشبه صوته، ولا بد أن يكون الشيخ سلامة بهذه المداومة على رواياته كل ليلة قد أخذ منه الكثير من

أصول التمثيل والفن وتتلمذ عليه لأن هذا الفن كان مجهولاً لدى المصريين كما أن أولاد عكاشه عبد الله وأخويه كانوا من تلاميذه الداوميين، وعبد العزيز خليل وكامل الخلعى كانا من أنبغ تلاميذه المقربين إليه. وأول من ساعده فى عمله من المصريين « أنطون فرح » اشتغل فى جوقته بحديقة الأزبكية. ولما طبقت شهرته الآفاق طلب للذهاب إلى معرض (واشنطون) ليعرض بعض رواياته، وقطعاته الفنية فيه، فأجمع أفراد فرقته إلى الدنيا الجديدة وكلهم أمل وغبطة لإطلاع زوار المعرض على الذكاء العربى ومقدار ما وصل إليه فنه — بيد أن الدوار الذى اعتراه فى طريقه جعله يعدل عن السفر فعاد أدراجه من إيطاليا إلى القاهرة وسافر أفراد فرقته وحدهم إلى (واشنطون) وعرضوا على زواره بعض فصول من قطعاته الموسيقية وبعض روايات كانت موضع تقدير القوم وإعجابهم هناك.) رأى نابغتنا بعد عودته من إيطاليا أن ينقل مسرحه من الأزبكية إلى قرب دار (الأبرا) الملكية ففعل. وبعد مدة من الزمن احترق مسرحه وعاد الشؤم والنحس يصحبانه من جديد، وكان قد انتشر هذا الفن فى ربوع النيل وكشفت غوامضه مما أهاب بصاحبنا أن يهجر القاهرة لتفرق أفراد جوقته وقلة ذات يده ويؤم الأرياف متكسباً مع بعض أفراد جوقته المتخلفين عن السفر إلى (واشنطن) فزاول العمل مدة فى الأرياف ثم قل العمل وتاقت نفسه للعودة إلى بلاده التى دفن فيها أحلامه.)

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

وفى نزوة من نزوات النفس الأمارة وموجة من موجات الشوق المبرح المضنى عاد القبانى إلى دمشق بعد أن نشر رسالة الفن فى القطر الشقيق، وكانت الحال قد تبدلت فى وطنه ومات من مات من عشاق فنه ورواد مجالسه، وهلك من هلك من حساده ومناوئيه. وكان المشيب يومئذ قد أشمل رأسه وكلل جبينه بهالة بيضاء من نور الشيخوخة والوقار فلم يجد فى نفسه الهمة الفتية والكفاءة للقيام بأى عمل فنى فأقام فى دمشق مدة كان معتزلاً العمل خلالها زاهداً فى بيته منقطعاً إلى صلاته ونسكه حتى أتاه رسول أحمد عزة باشا العابد) يدعوه باسمه للشخوص إلى الآستانة ليمهد له سبل المثول بين يدى الذات الشاهانية، فتجددت عزائمه بهذا الطلب وعاد الأمل يداعبه من جديد وقد نسى أن لكل زمان دولة ورجالاً، وقد هتف به هاتف من نفسه أن يعتذر عن هذه السفرة؛ بيد أن شبح (البوسفور) وآفاته التى تتبلع أشلاء الضحايا مثل أمامه ودفعه إلى إجابة الباشا إلى طلبه، وفور وصوله الآستانة استقبل من قبل الحاشية استقبالاً فخماً وحل ضيفاً على الوزير النابه صاحب الدعوة، وكان يتقن اللغتين التركية والفارسية فبقى هناك ضيفاً يتمتع بعطف مضيفه مدة من الزمن حتى احتال الوزير الداهية على المليك بوعد لمقابلة القبانى، وكان من شروطها الدخول على السلطان وهو محنى الرأس ومطرقاً إجلالاً وإكباراً مقبلاً الأعتاب بين يديه، وهى مراسيم كانت تطبق على كل من يريد المثول أمام هذا الطاغية الجبار، ومن يخالفها لا يكتب له الحظوة بهذه المقابلة. وعندما عرضت على صاحبنا القبانى رفضها بشمم وإباء قائلاً: أنا رجل نسيج وحدى لا أحنى رأسى لغير خالقى الذى يحيتنى ويحيينى ويطعمنى ويسقينى وبيده ضرى ونفعى؛ فإن شئت يا سيدى الباشا أن تكون مقابلتى لمولاى المعظم كمقابلتى لكل إنسان آخر من الناس فعلت، وإن أبيت إلا هذه الشروط فاعفنى من هذه الزيارة التى فيها المذلة والمهانة).

لم يكد الباشا يسمع من صاحبه هذه العبارات حتى كاد يجن لشدة ما عراه من الغضب والحنق، فغض الطرف عن هذه الزيارة ثم صدف القبانى عنه قائلاً أرجوك رجاءً حاراً ألا تذكر ما دار بينى وبينك من حوار إلى أى مخلوق لئلا يصل ذلك إلى مسامع السلطان فتكون الطامة الكبرى علينا نحن الإثنين، كما أنى آمرك أن ترحل من هذه الديار على الفور دون أن يشعر بك إنسان، وقد خصص له بعد سفره معاشاً من خزينة الدولة يكفيه هو وافراد اسرته.

بقى القبانى يتقاضى فى دمشق هذا الراتب منحة من الوزير المشجع لكل موهبة حقبة من الزمن كان فيها معتزلا الناس إلى أن اختاره ربه إلى جواره، فانطفأت بانقضائه تلك الشعلة الفنية التى أضاءت النور للشرق عامة ونفذ إشعاعها إلى ديار الغرب، وكانت السبب فى انبعاث هذه النهضة الفنية التى قامت فى ربوع الشام والنيل والتى لا يزال أثرها ماثلاً للعيان يذكرها أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة كابراً عن كابر) ...